الطفولة السعيدة

كنز الشباب والكهولة

لا تقع العين على منظر أجمل ولا أبهج من رؤية الأطفال الأصحاء يمرحون ويلعبون كأنهم الفراش المرفرف ، أو العصافير فى مطلع الربيع ، ولكن هذا المنظر البهيج قلّ "مع الأسف" أن يضم أطفالا مصريين ، فهو فى الغالب منظر أطفال الأجانب القاطنين فى هذه الديار .

هـذه الطفولة السعيدة المرحة الصحيحة هى عدة الأمم الناهضة ، ولبنات المستقبل تتطلع اليه فى وثوق واطمئنان ما دامت تملك هـذه الثروة من الأطفال الأصحاء السعداء . فالصحة والسعادة تشكلان الأجسام والعقول والنفوس ، وتؤثران فى الأخلاق والسلوك . وتضمنان النهوض بأعباء الحياة فى كفاية وطموح .

وهـذا الطفل النظيف الصحيح السعيد فى كنف أسرته وكنف المجتمع الذى يعيش فيه ، سيكون فى الغد رجلا قوى البنية سليم التفكير صحيح النفس بعيدا عن المرض والكآبة واليأس والفشل ، وسيرد الى أسرته ومجتمعه جميلهم عليه ، زيادة فى بناء الأسرة والمجتمع ، ونفعا الإنسانية وتجديدا فى كيانها بما لقى من صحة وسعادة وتفاؤل فى طفولته .

وازن بين هذا الطفل وبين غالبية أطفالنا المصريين الذين تبدو عليهم القذارة والمرض والكآبة ، حتى أبناء الأسر الغنية الذين لا تجد فيهم المرح ولا تلمح عليهم السعادة ولو كانوا نظيفين مترفين ، لأن السرور لا يعم منازلنا المصرية التى تتراوح بين الكبت والانقباض وبين التدليل والاستهتار وكلاهما شىء آخر غير السعادة والسرور

ولعل هـذه هى العلة الحقيقية فى كآبة أطفالنا أواستهتارهم ، فالأسرة وهى التى تطبع الأطفال بطابعها غير موجودة فى مصر . ذلك أن الأسرة القديمة كان يسودها الوقار والانقباض فلم يكن يتاح للأطفال فيها أن يمرحوا ويسعدوا لأن حركاتهم مقيدة ، والوقار الذى يحيط بهم يبعث فيهم الوجوم والركود ، ويجعلهم يشيخون قبل الأوان ، وتذهب طفولتهم دون أن يشعروا بها .

فلما خرجنا من هذا الطور من أطوار الأسرة ، خرجنا إلى الاستهتار والتفكك فأضحى لكل فرد فى الأسرة شأن يغنيه ، وانحلت الروابط بين أفرادها وخرج كل منها على هواه ، إلى زياراته ومواعيده ومشاغله ، فلم يبق للأسرة كيان ، ولم تعد جماعة منظمة لها مشارب

متحدة وأغراض عامة تمسكها بعض الوقت فى المنزل أو سواه، وتجعل للأطفال فيها حصة معلومة يستمتعون فيها بالجو العائلى السعيد .

وعلة أخرى . . . هى أننا لم نفهم بعد قيمة الطفولة فى حياة الفرد وحياة الشعوب ، فمرحلة الطفولة لا تزال فى نظرنا فترة مهملة ننتظر أن تنقضى حتى تأخذ الأطفال بالتربية والتهذيب . وحتى ينالوا عنايتنا بعد أن يكون أثر هذه العناية ضئيلا ، إذ الثابت أن سلوك الطفل يظل متأثرا بما اكتسبه فى سنواته الخمس الأولى .

أما الآخرون فقد فهموا قدر الطفولة ، وعلموا أنها منبع الثروة القومية ، فانحترا وأمريكا وأمم الشمال — بل اليابان — تجعل للطفولة موسما للعناية البالغة ، ولا تصرفها أشد المشاغل والكوارث عن العناية بالأطفال .

وها هى ذى انجلترا لا تلهيها الحرب الطاحنة عن رعاية الأطفال فتجعل فى مقدمة هموم الحرب نقلهم إلى أماكن أمينة داخل البلاد وخارجها حرصا على حياتهم وعلى سلامة أعصابهم من ويلات الحرب الجهنمية .

وللطفولة فى اليابان أعياد على مدار السنة لا يخلو شهر من شهورها دون عيد للأطفال يجتهد فيه الكبار بكل ما يمكنون فى إدخال السرور الى نفوسهم الصغيرة . أما الأعياد القبلية التى يختص بها الكبار هناك فلا تقاس مظاهرها البهيجة فى شىء بأعياد الصغار .

وفى الأمم الشمالية — قبل أن تدهمها جيوش البربرة الجرمان — بلغت العناية بالطفولة ألا يوجد طفل وحد مهمل مهما يكن شاذا أو مريضا . فلكل من هؤلاء قسط من العناية والتوجيه الذى يناسبه ويستغل القدر الضئيل الذى وهبته له الطبيعة من المواهب .

أما فى أمريكا فإنى أوجه النظر الى الكلمة المنشورة فى هذا العدد تحت عنوان "أحدث الوسائل لتوفير سعادة الطفل فى البلاد الأمريكية" للربية الفاضلة "السيدة منى صدقى" ففيه تفصيلات عن تجارب عملية فى هذا الميدان نستطيع فى مصر أن ننتفع منها بالشىء الكثير .

فى مصر عشرات الألوف من الأطفال المشردين فى الطرقات ، وعشرات الألوف من المشردين كذلك فى البيوت ، وأسمى هؤلاء الأخيرين مشردين ! لأن طفولتهم تضيع فى عبث فارغ وإهمال شنيع يجعل الفرق بينهم وبين المشردين محصورا فى الشكل دون الموضوع .

فأما القسم الأول فمن العبث أن ننتظر مجهود الحكومة وحده فى التشاطم ، فذلك عمل من أعمال خدمة الاجتماعية لا الحكومية . تطالب به الأمة وهيئاتها المختلفة ، وتنهض به المخصصات والتبرعات لا الميزانية وحدها . وعمل لهيئات رسمية لا يصح أن يتجاوز الإشراف والتوجيه ورسم الخطط ، وإن تكن الهيئات الأهلية فى أوربا وأمريكا هى التى نهضت وحدها حتى برسم السياسة ووضع القواعد بعد التجارب المستوفاة .

وأما القسم الثانى فيحيل إلى أن التقليد فى البيت وفى المدرسة تتصافر على كبت غرائزه وسرقة طفولته وعدم الاعتراف بها ، أو على إهمالها والاستهتار بقيمتها فتنشأ كما يشاء هما الاهمال والاستهتار .

فالكبار عندنا فى المنزل مشغولون بأنفسهم لا يشركون أطفالهم فى لعب ولا مرح ، ولا يحاولون أن يدخلوا السرور على قلوبهم الصغيرة حتى فى الأعياد التى يتخمونهم فيها بأنواع الأكل والملابس دون حركة أو حياة .

وفرق كبير بين ما يعده الكبار للأطفال فى عيد الميلاد وطريقة التى يعرضون بها هدايا " الكريسماس " وبين ما نعده نحن لأطفالنا فى العيد والطريقة الجافة المبتذلة التى نقدم بها ملابسه وحلواه والحوه التى تعقبها تذاكر الدواء وزيارة الأطباء !

أما فى المدرسة فالامتحان من خلف الأطفال والمدرسين يلهب ظهورهم بسياطه ولا يدع لهم فرصة لتفكير فى السعادة ولاستمتاع بمرح الحياة . وحتى ما يسمى " النشاط المدرسى " أصبح العمل فيه خاضعا لسياط الامتحان بفضل " المعارض " ورغبة المدارس فى كئوس التفوق على حساب الأطفال الأبرياء !

وعلى ذلك فنحن فى حاجة إلى عقلية جديدة تنظر إلى مرحلة الطفولة إذا شئنا شبابا طيبا وكهولة سعيدة . فى حاجة إلى عقلية تدع الأطفال يعيشون وهم يتعلمون . ولا تحاول سرقة طفولتهم فى البيت أو فى المدرسة وحرمانهم منها بتكبيرهم قبل الأوان ، كما تحذر من المبالغة فى التدليل المائع الذى يقف بنمو الأطفال العقلى والنفسى عند مرحلة الطفولة فيعيشون أطفالا وهم شبان ورجال .

وخير الوسائل لتحقيق هذا الغرض فى المنزل هو مشاركة الأطفال ألعابهم وتفكيرهم والأخذ بيدهم قليلا قليلا فى طريق تحمل التبعات بحسب السن المتدرجة حتى تسير التربية وسطا بين الكبت والتدليل .

أما فى المدرسة فطرق التربية الحديثة قد حلت هذه المشكلة ، ولكن النظام المدرسى عندنا لا يزال يتبع الطرق القديمة على الرغم من قشور التجديد والترقيع فى الطرق والمناهج والعناية الشكلية بالألعاب الرياضية والنشاط المدرسى .

ولسنا فى حاجة إلى هذا الترقيع بقدر حاجتنا إلى التجديد الكامل فى النظام والاتجاه ، لندخل على نفوس أطفالنا النشاط والمرح والاستمتاع بأطايب الحياة .